

من معالم العبادة في تفسير "في ظلال القرآن" لسيد قطب From the Milestones of Worship in Tafsir "Fi Zilal Al- Quran" of Sayyid Qutb

Bey Zekkoub Abdelali
Department of al- Qur'an and its Sciences, Kulliyyah of Islamic Sciences,
Al-Madinah International University Malaysia,
Plaza Masalam|E/9E 2, Jalan Tengku Ampuan Zabedah 40100 Shah Alam,
Selangor, Malaysia
Tel: +6017-3732293 E-mail: bey.zekkoub@mediu.edu.my

Chafai Yasmine
Master Degree at Department of Educational Psychology, Kulliyyah of Education,
International Islamic University Malaysia,
Jalan Gombak, 53100 Kuala Lumpur, Selangor, Malaysia
E-mail: mimina162009@hotmail.fr

ملخص

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الباطنة والظاهرة، وهي في الإسلام شاملة لكل جزئية من جزئيات حياتنا، والضابط في ذلك: أن تكون مما يرضى الله عنه من الأقوال والأفعال، وأن يُخلص فيها لله وحده. لذا سعت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مدلول العبادة الشامل الكامل، وكيف أنّ الحياة لا تستقيم إلا على أساس العبودية لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، يقوم الباحث بدراسة بعض الآيات القرآنية التي تناولت الجانب العبادي، ثمّ تتبعها تفسيراً وتأملاً من خلال تفسير سيد قطب تمهيداً لعملية استنباط معالم العبادة الكبرى، موظفاً المنهج الاستقرائي والتحليلي. وقد توصل الباحث في هذه الدراسة إلى أنّ العبادة في الإسلام شاملة للحياة كلّها، فكما أنّ العبد يتوجه لله وحده بالاعتقاد في ألوهيته، ثمّ يدين لله وحده في الوضوء، والطهارة، والصلاة، والصوم، والحج، وسائر الشعائر، كذلك يجب أن يدين لله وحده في حياته الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، والتشريعية.

الكلمات المفتاحية: معالم، العبادة، سيد قطب،
ظلال، القرآن.

Abstract

Worship is a comprehensive name of all what God loves and is pleased either actions, deeds or sayings. Worship according to Islamic perspective is includes all the aspects' life as long it is consistent and reliable with the rules of Allah and is featured with sincerity. This study sheds light on the broad insight of worship, and its importance in impacting the lives in a positive way by refraining humans from going astray. The researcher will be using some koranic verses that evolve around the worship and then he will broaden the scope to extract the general meanings of worship from the perspective of Sayyid Qutb. By implementing the analytical perspective, the researcher concludes that worship comprehends all the aspects of life, religious, political, economical, social and juridical.

Keywords: Milestones; Worship; Sayyid Qutb; Al Zilal; Al- Quran

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،
أمّا بعد!
فالظلال لون جديد في التفسير، وإنّ مؤلفه يقف في
مقدمة المفسرين، ويعتبر مهندساً لمدرسة معاصرة وأصيلة

في التفسير، إنَّها مدرسة التفسير التربوي الحركي، ولقد رأى سيّد قطب كغيره ممن سبقه من المصلحين والمربّين، أنّه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة، إلّا بالعودة بالحياة كلّها إلى منهج الله وحده الذي رسمه للبشريّة في كتابه العظيم وسنّة نبيّه الكريم، وإلّا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، فكان ما كان من مواقفه الصّلبة في قضايا عصره المصيريّة، فأصرّ على موقفه في سبيل الله تعالى وهو رهين القيود، وطُلب منه أن يسطرّ بقلمه كلمات اعتذار، فقال كلمته الإيمانية المشهورة التي انتهت باستشهاده: إنّ إصبع السّبابة التي تشهد لله بالوحدانيّة في الصّلاة لترفض أن تكتب حرفاً تقرّ به حكم طاغية.

هذا وإنّ العبادة هي الغاية التي خلق الله لأجلها الخلق أجمعين، بل إنّ المخلوقين أنفسهم سمو عباداً؛ لأنّ الغاية من وجودهم عبادة خالقهم ومعبودهم كما أوضحها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(Al-Quran, 51:56). وأوضحها النبيّ صلى الله عليه وسلم في أحاديث عدّة منها حديث جبريل في تعليمنا الدّين، أنّه جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابيّ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والسّاعة وأماراتها، فكان جوابه صلى الله عليه وسلم: ”الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .. وإلى آخر الحديث“

(Al- Bukhari, 2002). دلّ الحديث على حقيقة الإسلام ودعائه وأركانه العظيمة، ومن المعلوم أنّ دين الإسلام لا يقتصر على هذه الأمور الخمسة بل يشمل أعمالاً وشعباً كثيرة، وإنما جاء الاقتصار على ذكر هذه الأركان الخمسة لأنها بمنزلة الدّعائم للدين، وإلّا فالدين كلّه داخل في العبادة إذا تمّ تصحيح النيّة لله ربّ العاملين لا شريك له، فالفرائض والأركان الشعائرية وما زاد عليها من ألوان التعبد التطوعي عبادة، وحسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد عبادة، والأخلاق والفضائل الحسنة عبادة، والأخذ بالأسباب عبادة وهكذا فكلّ عمل يقصد به

وجه الله فهو داخل في إطار العبادة، قال الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(Al-Quran, 6:162). لا شك أنّ ابتداء الحديث بكلمة الشهادتين، إشارة واضحة إلى أهميّة التوحيد في العبادة، والتوحيد في العبادة لا يتمّ إلّا بأمرين هما: توحيد المرسل، أي: إخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد المرسل، أي اتباع منهج الرّسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وحده في هذه العبادة، وعدم الخروج عن ذلك، وإلّا فلا قبول للأعمال عند ربّ العالمين، وهذا هو المعنى الحقيقي لشهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا فكلمة التوحيد تعتبر الركن الركين والأصل الأصيل في أركان الإسلام، والتوحيد بمفهومه الرّباني الكامل الشّامل هو روح الشّريعة الإسلاميّة وأساسها وجوهرها، وهو الحقيقة الأساسيّة في كل الأعمال التي يتقرّب بها العبد إلى المولى عز وجل، ”ولقد كان الرّسل - عليهم الصّلاة والسّلام - من لدن نوح إلى عيسى قد بينوا للناس هذه الحقيقة، وعرفوهم بإلههم تعريفاً صحيحاً، وأوضحوا لهم مركز الإنسان في الكون، وغاية وجوده، ولكن الانحرافات الدائمة عن هذه الحقيقة تحت ضغط الظروف السياسيّة والشهوات البشريّة، والضعف الإنساني، كانت قد غشت تلك الحقيقة، وأضلتّ البشريّة عنها، وأهالت عليها ركاماً ثقيلاً يصعب رفعه بغير رسالة جديدة كاملة شاملة، ترفع هذا الرّكام، وتبدّد هذا الظلام، وتنير هذا التّيه، وتقرّ التّصوّر الاعترادي على أساس من الحقّ الخالص، وتقيم الحياة الإنسانيّة على أساس مستقر من ذلك التّصوّر الصّحيح، وما كان يمكن أن ينصرف أصحاب التّصوّر المنحرفة في الأرض كلّها، وأن ينفكوا عمّا هم فيه، إلاّ بهذه الرّسالة، وإلّا بهذا الرّسول، وصدق الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (Al-Quran 98:1 (Qutb, 1980).

مفهوم العبادة وأهميتها

أ- العبادة في اللّغة: الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق مُعبّد إذا كان مدلّلاً بكثرة الوطء، والمعبّد: المكرّم المعظّم كأنّه

يُعبَد، قال الشاعر: أرى المال عند الممسكين مُعبَّداً. (Ibnu Manzor, 2002). وأصل العبودية الخضوع والتذلل، والعباد: الموحَّد، ورجل عابد من قوم عبدة وعبُد وعبَّد وعبَّاد، قال ابن الأبياري: فلان عابد وهو الخاضع لربِّه المستسلم المنقاد لأمره، وعبَدَ الله يعبُده عبادة ومعبداً ومعبدةً: تألَّهُ له، والتعبُّد: التَّنسُّك؛ والمتعبِّد: المنفرد بالعبادة، وقال الرَّجَّاح: قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (Al-Quran 5:60). أي: أطاع الشَّيْطَان فيما سَوَّل له وأغواه، وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ﴾ (Al-Quran 1:5). أي: نطيع الطَّاعة التي يُخضعُ معها، وقيل: إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ، وقول الله تعالى: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (Al-Quran 23:47). أي: دائنون، وكلٌّ من دان لملك فهو عابد له، وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ (Al-Quran, 2:61). أي: أطيعوا ربَّكم. (Ibnu Manzor, 2002). ويرى الأستاذ أبو الأعلى المودودي استناداً إلى الشرح اللغوي لمادَّة (ع ب د): «أن مفهومها الأساسي أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلَبته، ثم ينزل له عن حرَّيته واستقلاله، ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقياداً، وهذه هي حقيقة العبودية والعبودية، ومن ذلك أن أول ما يتمثل في ذهن العربي لمجرد سماعه كلمة (العبد) و(العبادة) هو تصوُّر العبودية والعبودية، وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيِّده وامتنال أوامره، فحتماً يتبعه تصوُّر الإطاعة، ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيِّده طاعة وتذلاً، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه، وكان قلبه مفعماً بعواطف الشُّكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنَّه يبالغ في تمجيدِه وتعظيمه ويتفتن في إبداء الشُّكر على آلائه، وفي أداء شعائر العبودية له، وكلَّ ذلك اسمه التألُّه والتَّنسُّك، وهذا التصوُّر لا ينضمُّ إلى معاني العبودية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيِّده رأسه فحسب، بل يخضع معه قلبه أيضاً» (Al-Mawdudi, 1971).
أما شيخ الإسلام ابن تيمية، فيرى استناداً إلى المعنى الأصلي اللغوي للعبادة - وهو الطاعة مع الخضوع والتذلل - أن: "العبادة المأمور بها تتضمن معنى الدَّل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الدَّل لله بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له،

ولو أحبَّ شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحبُّ ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كلِّ شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كلِّ شيء، بل لا يستحقُّ المحبة والدَّل التَّام إلا الله". (Ibnu Taymiyyah, 1987). وبهذا يكون ابن تيمية قد وافق من سبقه من المتصوِّفة الأوائل كرابعة العدوية والجنيد البغدادي وسهل التستري وأبي حامد الغزالي وغيرهم في أن العبادة تتضمن إلى جانب معنى الدَّل والخضوع: معنى الحب.
بينما الأستاذ سيِّد قطب، فقد استنتج إلى جوار المعنى الأصلي اللغوي للعبادة معنى الدينونة الشاملة، قال عن ذلك: "العبادة هي الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها، ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها" (Qutb, 1985).
ب- العبادة في الاصطلاح: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حبُّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشُّكر لنعمه، والرِّضا بقضائه، والتوكل عليه، والرِّجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله (Ibnu Taymiyyah, 1987).
ويقول سيِّد قطب: إنَّ العبادة هي الاتِّباع في الشرائع بنصِّ القرآن وتفسير رسول صلى الله عليه وسلم (Qutb, 1985). وفي توضيح مصطلح "الاتِّباع" يقول سيِّد في تفسيره: "والإسلام لا يقوم إلا باتِّباع الله وحده في الشريعة - بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده - فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صحَّ فيهم ما صحَّ في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله - مهما كانت دعواهم في الإيمان - لأنَّ هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتِّباعهم لتشريع العباد لهم

من دون الله، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم، لا طاقة لهم بدفعه، وأنهم لا يقرّون هذا الافتئات على الله“ (Qutb, 1985).

هذا ويفهم من كلّ هذه التّصوص، أنّ أصل معنى العبادة مأخوذ من الدّلّ، يقال طريق معبّد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، غير أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على معنى الدّلّ فقط، بل تشمل معنى الحبّ والاتباع والديونة أيضاً، فهي تتضمّن غاية الدّلّ لله، وغاية المحبة له، وغاية الاتباع له، وغاية الديونة له، فيجب أن يكون الله أحبّ إلى العبد من كلّ شيء، وأن تكون شريعة الله أحبّ إلى العبد من كلّ الشرائع، واستناداً إلى المعنى اللّغوي الأصلي، استنتج أنّ العبادة هي: ”الديونة الكاملة لله في كلّ شأن، ورفض الديونة لغير الله في كلّ شأن“ (Qutb, 1985). وبهذه الديونة الكاملة الشاملة ”يتمّ إفراد الله سبحانه بالألوهية، والاعتراف له وحده بالعبودية“ (Qutb, 1985).

ج- أهمية العبادة: والتي نلخصها في سبع نقاط أساسية:

- هي غاية الوجود الإنساني: تكمن أهمية العبادة في كونها غاية الوجود الإنساني، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (Al-Quran 51:56).

- هي نهاية الوجود الإنساني: وكونها نهاية الوجود الإنساني إمّا إلى نعيم مقيم لقوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا، عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) (Al-Quran 76:5-6).

وإمّا إلى جحيم مقيت لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (Al-Quran 40:60).

- هي غاية إنزال الكتب والرّسل: ولأجل تحقيق هذه الغاية الرّبّانية والنّهائية المرجوة في معاش الناس ومعادهم بعث الله جميع رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة بعد الرّسل، وأنزل معهم الكتب بالحقّ ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبَرُوا

فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ (Al-Quran, 16:36). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (Al-Quran 21:25)

- هي غاية العبد حتى الموت: فقد أمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده بعبادته حتى الموت فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (Al-Quran 15: 99).

- هي غاية حبّ الخالق -جلّ في علاه- لمخلوقه: حيث جعل الله حبّه لعباده على قدر عبادتهم له، ففي صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»

(Al-Bukhari, 2002). كما جعل حبّه لعباده على قدر ابتلائه لهم، ففي صحيح الترمذي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السخط.“ (A-Tirmizi, 1999)

- هي غاية تربية النفس الإنسانية: حيث إنّها لما كانت العبادة هي غاية الوجود الإنساني، وعلى أساسها يتحدّد المستقبل الإنساني، جعل الله المقصود الأول للعبادة في الإسلام هي إصلاح النفس الإنسانية وتربيتها وتعليمها وتركيتها، ونورد هنا بعض الأمثلة على ذلك: ففي الصيام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (Al-Quran 2:183). وفي الصلوة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (Al-Quran 29:45). (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (Al-Quran 2:153). وعن نحر الأضاحي

في الحج: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ
التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (Al-Quran 22:37). وفي طلب
العلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي
الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا
فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (Al-Quran 58:11).

وفي نعمة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿كَمَا
أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ، يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ،
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ. فَادْكُرُوا لِي وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾

(Al-Quran 2:151-152). وغير ذلك من آي القرآن

في إصلاح النفوس الإنسانية وتربيتها.

- هي حق الله على عباده: ففي الصحيحين عن معاذ
بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي صلى الله
عليه وسلم على حمار فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق
الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله
ورسوله أعلم، قال: «فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه
ولا يُشركوا به شيئاً، وحقَّ العباد على الله ألا يعذب
مَن لا يشرك به شيئاً»، قلت: يا رسول الله، أفلا أبشِّر
الناس؟ قال: «لا تبشِّرهم فيتكلوا»
(Al-Bukhari, 2002).

إذن فحال الإنسان في الدنيا والأخرى يتحدّد على
حسب قيامه بالعبادات التي أمر بها، ووفائه بحقَّ الله
الذي دعي إليه وهو أن يعبد لا يشرك به شيئاً.

من معالم العبادة في ظلال القرآن

الآن سنقوم باستنباط معالم التربية بالعبادة في القرآن،
وإني إذ أستلها من كتاب «في ظلال القرآن»، الطبعة
الجديدة المشروعة المنقحة، وأقدمها على شكل معالم
محورية وقضايا كبرى ووقفات فكرية للشهيد سيّد قطب
رحمه الله لأضعها بين يدي القراء لقراءتها والانتفاع بها:
التأكيد أنّ العبودية لله أعلى مقام يبلغ إليه الإنسان
إنّ العبودية لله وحده أعلى مقام يبلغه الإنسان، ومن
يستنكف أن يكون عبداً لله وحده في جميع أحواله، يقع
تلقائياً عبداً لهواه وشهوته سواء شعر بذلك أم لم يشعر،
في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ

حُصْنَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنْجِي الْجُمُعَاتِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
(Al-Quran 8:41). يقول سيّد قطب: «إنّ العبودية
للّه هي حقيقة الإيمان وهي في الوقت ذاته أعلى مقام
للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له، إنّ العبودية لله وحده
هي العاصم من العبودية للهوى، والعاصم من العبودية
للعباد، وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدّر له، إلّا
حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية
لسواه، إنّ الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده،
يقعون من فورهم ضحايا لأحطّ العبوديات الأخرى،
يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ونزواتهم
ودفعاّتهم، وأمثالهم ..» (Qutb, 1985).

التأكيد أنّ الحياة لا تستقيم إلّا على أساس العبودية
للّه وحده

يؤكد سيّد قطب أنّ الحياة لا تستقيم إلّا على أساس
العبودية لله وحده، إذ هو العاصم الوحيد من العبودية
لهوى والعبودية للعباد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ
بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَظَلَمُوا بِهَا،
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

(Al-Quran 7:103). يقول سيّد قطب: «إنّ الحياة
لا تستقيم ولا تصلح إلّا على أساس الإيمان بالله
الواحد، والعبودية لإله واحد، وإنّ الأرض لتفسد حين
لا تتمحّض العبودية لله في حياة الناس» (Qutb, 1985).
والعبودية لله وحده معناها: «أن يكون للناس
سيّد واحد، يتوجّهون إليه بالعبادة، وبالعبودية كذلك،
ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع
لأهواء البشر المتقلّبة، وشهوات البشر الصغيرة! إنّ الفساد
يصيب تصوّرات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية
حين يكون هناك أرباب متفرّقون يتحكّمون في رقاب
العباد - من دون الله - وما صلحت الأرض قطّ، ولا
استقامت حياة الناس إلّا أيام أن كانت عبوديتهم لله
وحده - عقيدة وعبادة وشريعة - وما تحرّر «الإنسان»
قطّ إلّا في ظلال الرّبوبية الواحدة».

(Qutb, 1985).

التأكيد أن العبادة هي الدينونة الشاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، ولا يمكن البتة حصرها في الشعائر التعبدية فقط

في سياق قوله تعالى: ﴿وإلى عادٍ آحاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ، إن أنتم إلا مُفْتَرُونَ﴾ (Al- Quran 11:52). يقف سيد قطب وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصّة هود مع قومه في سياق هذه السورة، فيقول: "ولقد كنا دائماً نفسر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة» لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي، فإن «عبد» معناها: دان وحضوع وذلل، وطريق معبد طريق مدلل ممهد، وعبد جعله عبداً أي خاضعاً مدلاً، ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية، بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عند ما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله، وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره" (Qulb, 1985). ثم يؤصل سيد قطب كلامه بقوله: "ولقد فسّر رسول الله صلى الله عليه وسلم «العبادة» نصاً بأنها هي «الاتباع»، وليست هي الشعائر التعبدية، وهو يقول لعدي بن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأبحار والرهبان أرباباً: "بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم"، إنما أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون، صورة لا تستغرق مدلول «العبادة»، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! " (Qutb, 1985). وقد بين سيد مفهوم العبادة في موضع آخر فقال: "إن قضية «العبادة» ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة" (Qutb, 1985). ثم ينتقل بنا سيد ليبين لنا مفهوم الناس للعبادة فيقول: "فلما بهت مدلول «الدين» ومدلول «العبادة» في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي

فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً! وأنه متى تجنّب الإنسان هذه الصورة فقد بعُد عن الشرك والجاهلية، وأصبح «مسلماً» لا يجوز تكفيره! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله إلى آخر حقوق المسلم على المسلم!" (Qutb, 1985). وبعد تحديده لمفهوم الناس للعبادة، يردّ سيد على تلك المغالطة التاريخية لمفهوم العبادة التي أنتجت رواسب الجاهلية موضحاً في الوقت نفسه المفهوم الحقيقي للعبادة تبعاً لسياق السورة، يقول: "وهذا وهم باطل، وانحسار وانكماش، بل تبديل وتعديل في مدلول لفظ «العبادة» التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه - وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن، ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن، وهو المدلول الذي تفيد اللفظة في أصل اللغة والذي نصّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نصاً وهو يفسر قول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَبَائِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

(Al-Quran 9:31). وليس بعد تفسير رسول الله لمصطلح من المصطلحات قول لقائل" (Qutb, 1985) ثم ينتقل بنا سيد قطب في سياق تفسيره لقصة هود ليبين لنا أن الفعلة التي من أجلها استحقّ قوم هود الهلاك واللّعة في الدارين لم تنحصر في تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، وإنما امتدّت إلى جحودهم بآيات ربهم، وعصيانهم رسله، واتباعهم أمر الجبارين، قال سيد: "والفعلة التي من أجلها استحقّ قوم هود الهلاك واللّعة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده -أي الدينونة له وحده- إنما كانت الفعلة التكرّاء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي: جحودهم بآيات ربهم، وعصيان رسله، واتباع أمر الجبارين من عبده: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (Al-Quran 11:59) (Qutb, 1985).

التأكيد أن العبادة بمدلولها الشامل الكامل هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين

بما أن التوحيد هو دعوة جميع الرسل من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد عليه الصلاة والسلام كما سبق أن ذكرنا، فكذلك العبادة هي دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام مصداقاً لما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (Al-Quran 7:59). في التقدّم لسورة هود، يقول سيّد قطب: ” فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية، في التاريخ البشري كلّ، من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد عليه الصلاة والسلام، وتقرير أنّها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع، والتلقّي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ، مع الاعتقاد بأنّ الحياة الدنيا إنّما هي دار ابتلاء لا دار جزاء، وأنّ الجزاء إنّما يكون في الآخرة، وأنّ حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى، أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء“ (Qutb, 1985). ويقول أيضاً في موضع آخر من نفس السورة: ”نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول، وفي كل رسالة، دعوة توحيد العبادة والعبودية لله“ (Qutb, 1985)

التأكيد أن كلّ دين جاء من عند الله ليكون منهج حياة واقعية

بما أن إقامة دين الله في أرضه هي رسالة الرسل جميعاً، فإنّ من سمات هذا الدين أنّه جاء ليكون منهج حياة واقعية في الزمان كلّ والمكان كلّ والإنسان كلّ على اختلاف جنسه ولونه وشكله وطبقته، «لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة، منهج حياة واقعية، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها، ولم يجئ دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدّى في الهيكل والحراب، فهذه وتلك - على ضرورتها للحياة البشرية وأهميتها في تربية الضمير البشري - لا يكفيان

وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ما لم يتم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبّق عملياً في حياة الناس، ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان، ويؤخذ الناس على مخالفتها، ويؤخذون بالعقوبات».

(Qutb, 1985) وتالياً فوحدة مصدر تلقّي العقيدة والشعائر والشرائع يتضمّن استقامة البشرية على طريق الجادة، يقول سيّد: ”والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة“ (Qutb, 1985) بينما الحياة البشرية تفسد وتمزق حين تنزع السلطة فيها بين سلطتين مختلفتين، وبين منهجين مختلفين، فتتعدّد فيها مصادر التلقّي، لتصبح السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشعائر، وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا (Qutb, 1985).

التأكيد على أهمية توحيد العبادة والدينونة لله وحده في صيانة الجهد البشري يؤكّد سيّد قطب أنّ توحيد العبادة والدينونة لله وحده، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه، ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري -سواء كان الجهد نفساً بشريّة أو عرضاً بشريّاً أو مالا بشريّاً- من أن يُنفق في تأليه الأرباب الزائفة، كي يوجّه بجملته إلى عمارة الأرض، وترقيتها، وترقيّة الحياة فيها، في التعقيب الختامي الأخير لسورة هود عليه السلام، يقول سيّد قطب: «إنّ الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصوّر، معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي، والتي تمثّل الجهليّات الوثنيّة المختلفة صوراً منها، وتمثّل أوهام العوام المختلفة صوراً منها، وتقدّم فيها النذور والأضاحي من الأموال -وأحياناً من الأولاد!- تحت وطأة العقيدة الفاسدة، والتصوّر المنحرف، ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب! ومن السحرة المتصلين بالجنّ والعفاريت! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار! ومن الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء، حتى تتقطع

أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله «فقه المعاملات»! وهو انحراف بالتصوّر الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلّها في المجتمع الإسلامي“. (Qutb, 1985) إذن يتضح مما سبق أنّ قسمة العبادات والمعاملات اللذين اصطلح عليهما الفقهاء المتأخرون جاء مرتبطين في السياق القرآني، بمعنى أنّ القرآن لم يفرّق بين هذا وذاك لتكون مرادهما وغايتهما شيء واحد، ولا يمكن لأحدهما أن ينفك عن الآخر، ومما يؤسف له أنه مع مرور الزمن قد تركبت في عقول الناس بسبب ذلك التقسيم الفقهي ”أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» - وفق أحكام الإسلام- بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر، لا يتلقونه من الله، ولكن من إله آخر هو الذي يشرّع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله! وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنقسم، وكل من يفصمه إلى شطرين -على هذا النحو- فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر: يخرج من هذا الدين، وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه، ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني“ (Qutb, 1985).

أعناقهم وتوزّع جهودهم، وتبدّد طاقاتهم في مثل هذا الهراء! « (Qutb, 1985) ثمّ ينتقل بنا سيّد قطب ليقوم بمقارنة طفيفة بين التكاليف التي تقتضيها الدينونة لله، والتي تقتضيها الدينونة لغير الله، فيقول: ”و إنّ كلّ التّضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليعبد الله وحده في الأرض، وليتحرّر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام، ولترتفع الحياة الإنسانيّة إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان، إنّ كلّ هذه التّضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله لينذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله! والذين يخشون العذاب، والألم، والاستشهاد، وخسارة الأنفس، والأولاد، والأموال، إذا هم جاهدوا في سبيل الله، عليهم أن يتأمّلوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس، والأموال، والأولاد، وفوقها الأخلاق، والأعراض، إنّ تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلّها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله، وفوق ذلك كلّ الدّلّ والدنس والعار! وأخيراً فإنّ توحيد العبادة والدينونة لله وحده، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه، ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن يُنفق في تأليه الأرباب الزائفة، كي يوجّه بجملته إلى عمارة الأرض، وترقيتها، وترقية الحياة فيها“ (Qutb, 1985).

التأكيد أنّ عبادة الله وحده سبيل الرّشاد إلى تحقيق

كرامة الإنسان الحقيقية وحرّيته

يؤكد سيّد قطب أنّ الدينونة لله في كلّ شؤون الحياة سبيل إلى الحرّيّة من الدينونة لغير الله، يقول سيّد قطب في التعقيب الختامي الأخير لسورة هود عليه السلام: «إنّ الدينونة لله تحرّر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تحقّق للإنسان كرامته الحقيقية وحرّيته الحقيقية، هذه الحرّيّة وتلك اللتان يستحيل ضمّانهما في ظلّ أي نظام آخر -غير النظام الإسلامي- يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبوديّة، في صورة من صورها الكثيرة، سواء عبوديّة الاعتقاد، أو عبودية الشّعائر، أو عبوديّة الشّرائع، فكلّها عبوديّة، وبعضها مثل بعض، تخضع الرّقاب لغير الله، بإخضاعها للتلقّي في أيّ شأن من شؤون الحياة لغير الله، والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين!

التأكيد أن تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات

ومعاملات أنشأ آثاراً سيّئة في تصوّرات الناس

في سياق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(AI-Quran 11:123) يقول سيّد: ”إنّ تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات»، و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عن التأليف في مادّة «الفقه»، ومع أنه كان المقصود به -في أوّل الأمر- مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه - مع الأسف - أنشأ فيما بعد آثاراً سيّئة في التصوّر، تبعها -بعد فترة- آثار سيّئة في الحياة الإسلامية كلّها إذ جعل يترسّب في تصوّرات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأوّل من النشاط، الذي يتناوله «فقه العبادات»، بينما

لا بدّ للنّاس من دينونة، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شرّ ألوان العبوديّة لغير الله في كلّ جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم، وشهواتهم بلا حدّ ولا ضابط، ومن ثمّ يفقدون خاصّتهم الأدميّة ويندرجون في عالم البهيمية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحِنُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (Al-Quran 47:12) (Qutb, 1985).

الخاتمة

هذا ونخلص أنّ مجموع الدّين كلّه داخل في العبادة - كما سبق في تعريفها الاصطلاحي -، التي هي أشرف مقامات العبد في الدّنيا والآخرة، والتي بها نجاته وسعادته في الدارين، والتي بها يرفعه الله يوم القيامة درجات، وصلاح الدّين قائم على صلاح العبادة التي هي الدّينونة الكاملة لله وحده في كلّ شيء، وصلاح العبادة متوقّف على توحيد الألوهيّة وتوحيد العبوديّة، بمعنى أن لا يُعبد إلا الله، وأن لا يُعبد إلا بما شرع في كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وطرح كلّ ما لم يشرعه الله في كتابه، ونبّيه صلى الله عليه وسلم في سنّته، فالحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله، والدّين ما شرعه الله ورسوله، وماذا بعد الحقّ إلا الضلال، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

(Al-Quran 4:80). وقال أيضاً: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(Al-Quran 59:7). وقد ذمّ الله أهل الكتاب لاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يحلّون لهم ما حرّمه الله من الحنائب، فيستحلّونه، ويحزّون عليهم ما أحلّه الله من الطيبات، فيحزّونه، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (Al-Quran 59:7). ومسك الكلام أنّ العبادة لها أثر عظيم في صلاح الأفراد والمجتمعات والكون كلّه، فكلّما كان الناس إلى العبادة أقرب، كان الكون إلى الصّلاح أقرب، وكلّما بعدوا عن العبادة، كان الكون

إلى الفساد أقرب؛ والعبادة بمفهومها الكامل الشّامل لها تعلق مباشر بالعبادة، ولا يمكن أن تنفكّ عنها أبداً، لذا نجد سيّداً في تفسيره أنّه قد أعطى قسم العبادة مساحة كبيرة من الاهتمام، وأنّه ما من مسألة أساسية لها علاقة ما بالموضوع إلّا وأبدى فيها رأيه من خلال تفسيره لهذا المقطع أو ذلك، ولهذا الآية وتلك، ومن خلال مقدماته التحليليّة التأمليّة لسور القرآن وبخاصّة السّبع الطّوال، بله إنّه ربط حديثه حول قسم العبادة وقسم الأخلاق بقسم العبادة ليجعلها هي الأساس في أيّ انطلاق أو قرار وفي الحسم في أيّ قضية، ويؤكد هذه الرّؤية سيّد نفسه عندما يقول: "إنّ حدود العبادة تتسع وتترامى حتى تتناول كلّ جانب من جوانب الحياة، وقضيّة الحاكميّة بكلّ فروعها في الإسلام هي قضية عبادة، كما أنّ قضية الأخلاق بجمليتها هي قضية عبادة، فمن العبادة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشّرائع سواء بسواء". (Qutb, 1985) وعليه نجد أنّ سيّداً نذر بقيّة حياته للدّفاع عن الإسلام عن طريق تفسير القرآن بلغة العبادة، والتركيز فيه على توضيح الحقيقة الأساسيّة في الإسلام وهي: حقيقة كلمة التوحيد، وتعميقها في نفوس النّاس، وهذا ما جعله يغيّر كثيراً من أفكاره ومواقفه في الطبعة الثانية من "الظلال"، وفي كتبه الأخيرة: هذا الدّين، و"المستقبل لهذا الدّين" و"خصائص التّصوّر الإسلامي ومقوماته"، و"معالم في الطّريق".

وقد توجّس خلال هذه الدراسة إلى ثمانية معالم، مع التأكيد أنه ثمة معالم أخرى قد نشبعها دراسة وتحليلاً في مناسبة أخرى، لأنّ الموضوع يحتاج إلى جهد كبير، وتفصيل طويل لا تحتمله هذه الدراسة، والمعالم المتوصّلة إليها هي كالآتي:

1. التأكيد أنّ العبوديّة لله أعلى مقام يبلغ إليه الإنسان.
2. التأكيد أنّ الحياة لا تستقيم إلّا على أساس العبوديّة لله وحده.
3. التأكيد أنّ العبادة هي الدّينونة الشّاملة لله وحده في كلّ شأن من شؤون الدّنيا والآخرة، ولا يمكن البتّة حصرها في الشّعائر التبعديّة فقط.
4. التأكيد أنّ العبادة بمدلولها الشّامل الكامل هي دعوة

جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين.

5. التأكيد أنّ كلّ دين جاء من عند الله ليكون منهج حياة واقعية.

6. التأكيد على أهمية توحيد العبادة والدينونة لله وحده في صيانة الجهد البشري.

7. التأكيد أن تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات ومعاملات أنشأ آثاراً سيئة في تصورات الناس.

8. التأكيد أنّ عبادة الله وحده سبيل الرّشاد إلى تحقيق كرامة الإنسان الحقيقية وحرّيته.

هكذا إذن فإنّ العبادة في الإسلام وحدة لا تنقسم، وكل من يفصمها إلى شطرين: وهو التوجّه إلى الله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، وتأدية نشاط العبادات وفق أحكام الإسلام، بينما ممارسة نشاط المعاملات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، والتشريعية وفق منهج آخر، لا يستمدّ من وحي الله، ولكن من وحي إله آخر هو الذي يشرّع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله! فإتّما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر: يخرج من هذا الدين، وهذا الحكم بطبيعة الحال يسقط على من يعتقد اعتقاداً جازماً لا ريب فيه أنّ الشريعة الإسلامية لا تصلح لشؤون الحياة الحاضرة بدعوى أن الدين هو علاقة بين العبد وربّه في الاعتقاد والشعائر، ولا صلة له بالتشريع والأمر والحاكمية في الدولة وفي كلّ شأن من شؤون الحياة الدنيوية.، وهذه هي الحقيقة الكبرى التي يجب أن يعلمها كلّ مسلم يريد أن يحقق إسلامه، ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (Al-Quran 51:56).

تمت الدراسة والله الحمد والمنّة، اللهم هذا الجهد، وعليك التكلان، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

References

Al- Quran.

Al- Bukhari, M. I. (2002). Sahih al

Bukhari. Beirut: Darul Kutub Al- ‘Arabiyyah.

Al- Mawdudi, A. (1971). Al- Mustalahat Al- Arba‘ah. Kuwait: Darul Kalam.

Al- Tirmidhi, M. (1999). Sunan Al Tirmidhiyy. Cairo: Darul Hadith.

Ibnu Manzor, A. (n.d). Lisan Al- ‘Arab. Tahqiq: Amin M, Muhammad S. Beirut: Dar al- Ihya’ a- Turath al- ‘Arabi.

Ibn Qayyim. (1996). Matn al- Qasidah Al- Nuniyyah. Cairo: Maktabah Ibnu Taimiyyah.

Ibnu Taymiyyah, A. (1987). Al- ‘ubdiyyah. Beirut: Darul Kitab Al- ‘Arabi.

Sayyid, Qutb. (1970). Hadha e-Ddin. Beirut: Daru Shuruq.

Sayyid, Quīb. (1980). Khasa’is Al-Tasawwur Al- Islami. Cairo: Daru Shureq.

Sayyid, Quīb. (1985). Fi Zilal Al- Quran. Cairo: Daru Shuruq.